‘Yandoto Academic Journal of Arabic Language and Literature
ISSN: 2714-4712 (Print & Open Access)
https://easpublisher.com/journal/yandoto/home

دور اللغة العربية في تطوير المدارس القرآنية في نيجيريا

The Role of Arabic Language in the development of Qur’anic Schools in Nigeria

إعداد
أمين شيخ أبوبكر

ملخص
هذا البحث محاولة أراد الباحث أن يلقي بها ضوءً عن دور اللغة العربية في تطوير الكتاتيب القرآنية في نيجيريا من خلال الإجابة عن الأسئلة التالية: متى دخلت اللغة العربية في نظام الكتاتيب القرآنية؟ وكيف استطاعت التأثير فيها؟ وما هي أهم المراحل التي مرّت بها اللغة العربية لتطورها في الكتاتيب القرآنية؟ وما مدى نجاحها في إثبات هويّتها في هذه الكتاتيب على الرغم من محاولات الاحتلال البريطاني على طمسه؟ وما هو حال اللغة العربية اليوم في نظام المدارس القرآنية الحديثة؟ وهذا ما سيستعرضه الباحث في هذا البحث ويتابعه بالتحليل والنقاش والنقد بإذن الله تعالى .

Abstract
This research is an attempt, the researcher intends to deliver a light on the role of Arabic language in the development of Quranic schools in Nigeria, through the answers of the following questions: When the Arabic language disseminate in the Quranic schools' system? How is it influence the system? What are the main stages of the development of Arabic language in the Quranic schools? How the Arabic language was succeeding in protecting its identity in spite of the attempting of colonials to eradicate its shining? What is the situation of Arabic language in the contemporary Quranic schools today? These and other important related issues the researcher will explain and discuss them critically.

مقدمة:

إن اللغة العربية هي لغة القرآن، ولا أحد ينتمي إلى الإسلام إلا وقد شرب من ينابيعها خلال تعلّم القرآن، يتعلّم بعض ألفاظها، وهذه اللبنة الأساسية التي حصل عليها في العربية هي التي تحفزّه إلى المزيد منها، ويتعمّق في تعلّمها وفهمها، لأنها لغة القرآن كتاب رب العالمين. فلا ريب أن يتمثّل تأثير اللغة العربية في تلاميذ الكتاتيب القرآنية تأثيرًا بالغًا يترك بسماته على نظامها وطريقة التعليم فيها إلى حدّ تتغيّر فيه نمط السير والتوجه فيها.

قبل سيطرة الاحتلال البريطاني على المناطق التي تمثّل نيجيريا حاليًا كانت الكتاتيب القرآنية تعتبر المرحلة الأولى للتعليم، يلتحق بها الصبيان إذا ترعرعوا ليتعلّموا قراءة القرآن الكريم وكتابته، ومنها ينتقلون إلى المراحل المتقدمة، وبعد ذلك يكتسبون ثقافة دينية واجتماعية ومهارة لغوية تؤهلهم ليحتلوا مكانة مرموقة في المجتمع، مندمجون في رَكب المقربين إلى ولاة الأمر.

وقد أثّر الاحتلال البريطاني في طمس معالم اللغة العربية والثقافة الإسلامية بعد دخوله إلى نيجيريا، مستغلا إحكام قبضته على البلاد وبسط سيطرته عليها، ففتح مراكز علمية لنشر ثقافته وعقيدته المسيحية والتصدي للكتاتيب القرآنية والمعاهد الدينية. فقامت اللغة العربية بمقاومة الاحتلال على مخططاته، ولعبت دورًا محوريًّا في تطوير الكتاتيب القرآنية وتأهيلها إلى مستوى تستطيع الصمود أمام

الريح العاتية المتمثّلة في جهود الاحتلال في تهميشها وطمس معالمها نهائيا. وهذه الدور من قِبل اللغة العربية قد آتت ثمارها، حين ظلّت المدارس القرآنية قائمة على قدميْها إلى الوقت الراهن.

عرض موجز عن الكتاتيب القرآنية في نيجيريا:

الكتاتيب**:** جمع ومفرده كتّاب. يقول ابن منظور: والكتّاب: "موضع تعليم الكتاب، والجمع الكتاتيب والمكاتِب، ويسمّى أيضا مكتَب.[1] قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: " قرأت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة وزيد بن ثابت له ذؤابة في الكتّاب".[2] وهو اسم يطلق في شمال أفريقيا على مدرسة تعليم القرآن الكريم. أما في بلاد هوسا نيجيريا فيطلق عليه اسم (Tsangaya) أو (Makarantar Allo) أي مدرسة اللوح، سمّيت بهذا الاسم لأن التلاميذ المنتسبين إليها كانوا يكتبون دروسهم على الألواح الخشبية.

هذه المدرسة هي التي يتعلم فيها الأطفال مبادئ في القراءة والكتابة وكيفية قراءة القرآن الكريم، وقد تكون غرفةً في بيت المعلم أو دكانًا أو دهاليز المنزل أو المسجد. وتعتبر المرحلة الأولى من التعليم العربي الإسلامي لذلك يبدأ الولد بتعلم مبادئ القراءة والكتابة ثم يتعلم قراءة القرآن الكريم، وذلك مقابل أجر أو جُعل معيّن أو غير معيّن يدفَع إلى المعلم كل أسبوع أو كل شهر أو كلّ سنة.[3] وتختلف الكتاتيب باختلاف مكان وجودها، ففي البوادي غالبا تكون ملحقة بالمسجد، وقلّما تنفصل عنه، أما في المدن فإنها تكون ملحقة بالمسجد أو منفصلة عنه

يصعب تحديد الفترة الزمنية التي وصل من خلالها تعليم القرآن الكريم إلى نيجيريا، ولكن ما هو مشهور عند المؤرخين أن دخول تعليم القرآن الكريم في نيجيريا يعود إلى بداية دخول الإسلام في هذه البلاد، لأن من اعتنق الإسلام أول ما يتبادر إليه هو تعلّم مبادئ الإسلام وتعاليمه ليتمكّن من القيام بالالتزامات الدينية.[4] وقد أسهم عدد كبير من العلماء والدعاة الذين زاروا هذه المنطقة في انتشار التعليم العربي والإسلامي فيها، وخلّدوا تراثًا ثقافيًّا هائلاً استفاد منه أهلها، ولا شك أن الملوك الذين اعتنقوا الإسلام قاموا بدور بارز في نشر التعليم الإسلامي، فقد فتحوا مؤسسات لتعليم القرآن الكريم واستقدموا العلماء من بلدان أخرى واستوطنوهم في مملكاتهم، وكذلك المواطنون الذين درسوا وتخرّجوا على أيدي هؤلاء العلماء أو الذين تغرّبوا عن ديارهم وتجوّلوا في الممالك المجاورة أو في شرق أفريقيا لطلب العلم والمعرفة.[5]

والإشكالية الأخرى التي تواجه الباحثين هي تحديد الفترة الزمنية التي أصبح تعليم القرآن الكريم تخصصًا مستقلاً عن بقيّة علوم الدين، والمشهور أنه في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي قد انتشر تعليم القرآن الكريم في مملكة كانم برنو، حتى إن السلطان الثاني عشر في ملوكهم والأول بالنسبة لملوك الإسلام، همي جلمي (Hummi Jilmi B. Selemma) الذي حكم ما بين 1086م – 1097م) قد حفظ القرآن الكريم كاملا.[6]

وإن القراءة القرآنية التي دخلت إلى نيجيريا في بادئ الأمر هي رواية ورش عن نافع، وذلك عن طريق مصر مرورا بالقيروان ومن هناك انتشرت في غرب أفريقيا ومنها مملكة كانم برنو.[7] أما رواية حفص عن عاصم فقد ذهب بعض الباحثين إلى أنها وصلت إلى نيجيريا مع إيفاد أساتذة وشيوخ من السودان إلى نيجيريا للتدريس بكلية الشريعة التي أنشئت في مدينة كنو في عام 1934م.[8]

أما كلية كلية الشريعة فقد أسست في عام 1934م خِصيصًا لتدريب القضاة، وفي عام 1947م غيّر اسمها إلى مدرسة العلوم العربية وأُلحق بها تدريب مدرسي اللغة العربية، فعمّها طلاب العلم من جميع أنحاء نيجيريا، وأصبحت كعبةً علميةً ونموذجًا فريدًا لتطوير التعليم العربي الإسلامي في نيجيريا.[9]

وتنقسم كتاتيب القرآن إلى قسمين: فالأول هو القسم الذي يتعلم فيه الصبيان قراءة القرآن فقط من غير حفظ، وهي الأكثر انتشارا، وتسمّى (Makarantar Allo) بمعنى مدرسة اللوح- كما ذكرنا سابقا- ويكتبون فيها القرآن. وكان من عادات أهل هذه البلاد إذا ترعرع الطفل وبلغ خمس سنوات تقريبًا يرسل إلى

هذه المدرسة، وهي بمثابة المرحلة الابتدائية من مراحل التعليم فيها، قلّ ما تجد طفلا سواءٌ في المدن أو في القرى إلا وتعلّم في مثل هذه المدارس، حتّى وإن لم تكن موجودةً في قريته يرسل إلى القرى المجاورة التي توجد فيها المدرسة. أما القسم الثاني فهو الذي يحفظ فيه الطلاب القرآن الكريم عن ظهر الغيب، وتعتبر هذه المرحلة بمثابة مرحلة ما بعد الابتدائية، ويطلق عليها (Tsangaya). يقع معظمها في منطقة برنو وما جاورها، وعددها قليل بنسبة إلى القسم الأول، ولا يلتحق بها الولد غالبا إلا إذا أتمّ مرحلة الابتدائية (القسم الأول). وتقع غالبا خارج المدن وفي القرى، ويبنون بيوتهم من الأخصاص، ويعيشون هناك مع معلميهم.[10]

دور اللغة العربية في محو الأمية في نيجيريا:

إن اللغة العربية وثقافتها قد انتشرت وازدهرت ازدهارًا كبيرًا في نيجيريا، فقد اتخذها الملوك والعلماء لغة رسمية لهم، بها تصدر المراسيم وتجرى المراسلات وتدوّن القرارات السياسيّة والقضائيّة، وبها تبرم العقود التجاريّة والعهود والمواثيق، إلى جانب استعمالها لغة للدين، ولا تزال تتخذ وسيلة للتعليم الديني والتأليف. وإن تعلّم القراءة والكتابة بهذه اللغة يحتاج إلى أن يلتحق الطالب بمدرسة يتعلم فيها أو يذهب إلى معلّم يتعلّم منه، فكانت الكتاتيب هي المدرسة الابتدائية التي يتعلم فيها التلميذ كيفية الكتابة والقراءة بالخط العربي، فإذا تعلّم قراءة القرآن يستطيع من خلال ذلك أن يكتب ما يشاء من الرسائل وغيرها بلغته المحلية مستعملا الحروف العربية، لذلك يمكن اعتبار الكتاتيب القرآنية هي المؤسسات الأولى لمحو الأمية في المجتمع، يلجأ إليها الناس ليحاربوا الجهل وليتزوّدوا بثقافةٍ عربيةٍ تمكّنهم من الاندماج في المجتمع والقيام بدورٍ كبيرٍ في الشؤون السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية.

تطوير الخط العربي المغربي:

كان الخط العربي المغربي هو الخط المنتشر والمستعمل في الكتابات في نيجيريا، وذلك لأن قراءة ورش عن نافع التي دخلت إلى نيجيريا عن طريق المغرب كانت مكتوبة بالخط المغربي، وهو الذي يُستخدم في كتابة المصاحف والرسائل وغيرها. وقد استطاع العلماء في مملكة برنو تطوير شكل هذا الخط بصياغة جديدة تختلف عن الخط المغربي المعروف مع بقاء صورة الحروف على حالها دون تغيير، ويمكن أن يطلق عليه اسم الخط المغربي البرناوي بدلا من الخط المغربي فقط، لأن طريقة رسمهما مختلفة اختلافا بيّنا.

تبني الخط العربي في كتابة اللغة المحلية:

لم يثبت في التاريخ أن قبيلة من القبائل التي تقطن نيجيريا حاليًّا لها خطوط خاصّة تكتب بها لغتها الأم، والمعلوم هو عندما دخل الإسلام في المناطق الموجودة داخل نيجيريا حاليّا وانتشر تعليم القرآن الكريم فيها اتخذ الناس الخطوط العربية في كتابة لغاتها المحلية، فأصبح الهوساوي والكانوري والفلاني واليرباوي وغيرهم يكتبون لغاتهم بالخطوط العربية، والفضل في ذلك يعود إلى كتاتيب القرآن الكريم، لأنها مراكز لتعلم القراءة والكتابة إضافة إلى تعليم القرآن الكريم، فكان الذي لا يستطيع أن يكتب يذهب إلى المعلّم في الكتاتيب أو يطلب من أحد طلابها أن يكتب له.

والجدير بالذكر أنهم استطاعوا وضع رموز لأصوات موجودة في لغاتهم المحلية ولا توجد حروفها في الخطوط العربية، وذلك عن طريق وضع نقاط على أو تحت حروف عربية تجانس أصواتها تلك الأصوات الموجودة في اللغة العربية. ولكن لم يحدّد المؤرخون الفترة الزمنية التي بدأ الناس فيها استعمال الخطوط العربية في كتابة اللغة المحلية، لذلك إن هذه النقطة بالذات تحتاج إلى بحث دقيق لبلورتها وكشف مضامينها ومراحل تطويرها.

هكذا ظلّ الحال إلى أن جاء الإنجليز المحتلّ واستولوا على المناطق التي تحت نيجيريا حاليًّا، وبعد أن ثبتت أقدامهم على أراضيها شنّوا حربا على اللغة العربية، ودبّروا مكائد حتى استطاعوا من تقليص نفوذها وعزلها عن الساحة السياسية والإدارية واستبدلت بلغة المستعمر.[11] وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت

الخطوط العربية تستعمل في نيجيريا وخاصة في الكتاتيب القرآنية، وتدرّس في الجامعات إلى الوقت الراهن.

تأثير الثقافة العربية في الكتاتيب القرآنية:

إن الكتاتيب القرآنية قد أسهمت بشكل كبير في انتشار الثقافة العربية إضافة إلى اللغة العربية، وكان اتصال مسلمي نيجيريا بمصر وشمال إفريقيا والحجاز من أجل التعلم اتصالا قويًّا، تبلورت آثارها جليًّا في كثير من نواحي الحياة، حتى صارت هذه البلاد تضاهي تلك البلاد في العقيدة ومظاهر الحياة والتعليم.

أكّد الباحثون أن منهج التعليم في الكتاتيب القرآنية في نيجيريا منقول إلى حدّ كبيرٍ من المنهج المتبع في الكتاتيب في المغرب العربي،[12] فقد وصفه ابن خلدون في مقدمته حيث قال: (فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله ... لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب، إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه) إلى أن قال: (وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر).[13]

وكذلك طريقة التدريس وأدوات التدريس فيها وأيام الدراسة والإجازة وطريقة إقامة الحفلة للأولاد الذين ختموا القرآن أو وصلوا إلى جزءٍ معيّنٍ فيه فهي قريبة جدًّا إلى طريقة أهل غرب إفريقيا بشكل عام بتغيير يسير. يقول ليون الإفريقي في وصف مدينة فاس المغربية:

> ***(وهنا يعلمهم المعلم القراءة والكتابة، وليس في كتاب معيّن، بل بالاستعانة بألواح خشب كبيرة يكتب عليها التلاميذ. ويقتصر درس كل يوم على آية من القرآن.. إلى أن يجيد الطفل تعلمه بصورة مقنعة جدا ويحفظه عن ظهر الغيب أو يدرك ذلك بعد انقضاء مدة سبع سنين)***[14]

إلى أن قال:

> ***(وحينما يختم الطفل حفظ القرآن يقوم الأب بصنع وليمة فخمة لكل التلاميذ. وفي أثنائها يكسى الطفل وكأنه أمير. ثم يذهب به على ظهر جواد.. ثم تكون الوليمة التي يحضرها أصدقاء الوالد ويقدم كل واحد منهم شيئا للمعلم).***[15]

منهج تعليم اللغة العربية في الكتاتيب:

يعتبر المسلمون في نيجيريا قديمًا بأن تعلّم القرآن الكريم أمرًا ملزمًا لكل فرد، لذلك انتشرت المدارس القرآنية في جميع أنحاء البلاد، وما زالت إلى الآن هي الأكثر انتشارا في المناطق التي يقطنها المسلمون، لذلك كان الناس يتعلمون اللغة العربية جنبا إلى جنب مع القرآن الكريم حسب المرحلة التي يكون فيها الطالب. ويمكن تقسيم مراحل التعليم في الكتاتيب القرآنية إلى ثلاث مراحل: الابتدائية والمتوسطة والمتقدمة.

ففي المرحلة الابتدائية يتعلم فيها التلميذ الحروف العربية مجرّدة ومتحرّكة، وذلك عن طريق تحليل حروف سورة فاتحة الكتاب، وعشر قصار السور الأخيرة في القرآن الكريم، أي من سورة الفيل إلى الناس. مثال ذلك: {الحمد لله رب العالمين } يتعلمها هكذا: { ألف، لام، حاء، ميم، دال، لام، لام، هاء....}. ثم ينتقل إلى تعلم نفس السور عن طريق تحليل الحروف، لكن هذه المرة يتعلم الحروف بالحركات مثال ذلك: {اَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } يتعلمها هكذا: {ألف بالفتحة مع لام ساكنة = (اَلْ)، حاء بالفتحة مع ميم ساكنة = (حَمْ)، دال بالضمة = (دُ).... }. إلى هنا يتمكّن الولد من تعلم القراءة. يتولى المدرس في هذه المرحلة كتابة الدرس للتلميذ.

ثم ينتقل التلميذ إلى المرحلة المتوسطة ليتعلم الكتابة وإتقان القراءة أيضا، وفيها يتولّى الولد نسخ الدرس بنفسه، ويتعلّم سور القرآن الكريم، يبدأ عادةً من سورة فاتحة الكتاب، ثم ينتقل إلى الأسفل فيتعلّم سورة الفلق ثم سورة الناس وهكذا إلى أن يختم تعلّم القرآن بسورة البقرة. وفلسفة هذا المنهج هو أن الولد يبدأ بتعلّم قصار السور التي يسهل عليه ختمها سريعا، ثم ينتقل إلى السور المتوسطة ثم السور الطوال. واستعمال اللغة العربية كلغة للتعليم في هاتين المرحلتين معدوم، إذ إنّ الاهتمام مركّز على جانب القراءة والكتابة والحفظ، دون الالتفات إلى جانب المعنى الذي يدرك بواسطة معرفة اللغة العربية.

أما المرحلة المتقدمة فهي للشباب والكبار فقط، وقلّما تجد ولدًا صغيرًا فيها؛ وتنقسم إلى قسمين: قسم يتخصّص فيه الطالب في حفظ القرآن الكريم فقط، وقسم يتخصص فيه الطالب في تعلّم اللغة العربية والدراسات الإسلامية. فالطلاب الذين تخصصوا في القسم الأول يتفرّغون لحفظ القرآن وإتقانه دون غيره من العلوم العربية والإسلامية. والطلاب الذين تخصصوا في القسم الثاني يكتفون بتعلّم القرآن قراءة دون حفظه كاملا وينصرفون إلى تعلّم اللغة العربية والدراسات الإسلامية، أحيانا، فالذي أتقن القرآن في القسم الأول ينتقل إلى هذا القسم ليواصل تعليمه فيه.[16]

ومن خلال اللغة العربية يدرسون الكتب التي أحضرها العلماء المغاربة معهم، وأهم المواد المقررة من العلوم والفنون هي: التوحيد الأشعري، والفقه المالكي، والقصائد الوعظية، ومتون اللغة؛ كمقامات الحريري ومختار الشعر الجاهلي، وقواعد النحو والصرف والبلاغة والعروض والقافية والتجويد والقرآن والتفسير والحديث والأصول والمنطق والفلك. أما الكتب المقررة فهي الكتب المشهورة قديمًا في بلاد العرب، وربما أضافوا إليها بعض كتب أخرى من مؤلفات علمائهم.[17]

دور الكتاتيب في افتتاح المدارس العربية والإسلامية الحديثة:

لعبت اللغة العربية دوار بارزا في تطوير الكتاتيب القرآنية إلى المدارس العربية والإسلامية على غرار المدارس الابتدائية التي أسسها المستعمرون في نيجيريا، هذا الدور لم يكن ليقع صدفة، بل هناك أسباب مسبقة دفعت المسلمين في نيجيريا في تطوير المدارس القرآنية. ذكر بعض الباحثين بأن أهم الأسباب التي أدت إلى تأسيس المدارس العربية والإسلامية في نيجيريا هي:

أوّلا: إن المسلمين لم يرتاحوا إلى المدارس التي فتحها المحتلّون التي يشرف عليها المنصّرون بغرض نشر المسيحية وثقافتهم على حساب الإسلام والثقافة العربية.

ثانيا: إن نظام المدارس القرآنية في ذلك الوقت غير قادر على مواجهة نظام المدارس الجديدة المدعومة من قِبَل المحتلّين بالمال والسلطة، فإذا أراد المسلمون المحافظة على هوّيتهم الدينية وتربية أطفالهم والثقافة العربية فلا بد من تطوير الكتاتيب إلى نظام يضاهي النظام الذي أدخله المحتل.[18]

ثالثًا: إن تعدّد المدارس القرآنية في نيجيريا، واتباعها المنهج والأسلوب التقليديَين، حيث لم تدرج العلوم الدينية واللغة العربية فيه، والناس في حاجة إلى تعليم أطفالهم مبادئ الإسلام والتحدث باللغة العربية، كل هذه الأمور تحتّم عليهم وجود مدارس لتعليم الأطفال علوم الدين واللغة العربية بأسلوب حديث غير الذي تعوّدوا عليه في الكتاتيب حيث يشوبه تجاوزات في التأديب حتى كان يقيّد التلميذ في سلاسل من حديد.[19]

ففي عام 1912م فتح المحتلّون أوّل مدرسة ابتدائية في كنو، وهي الأولى من نوعها في شمال نيجيريا لتعليم القراءة والكتابة والحساب بالحروف اللاتينية، ولمّا قوبلت بالتحفظ من قبل المسلمين أضيف في مناهجها حصص الدين واللغة العربية وإن كان إدراجهما في المنهج شكليًّا، لأنه لم يُوضع لها المنهج ولا انتُدب لتدريسهما أساتذة أكفاء.[20] وعلى الرغم من هذا التطوّر لم يطمئن المسلمون إلى هذا النظام الذي أدخله المحتل إلى بلادهم، ومما يؤكد ذلك أنه في المرحلة الأولى من الاحتلال وبالتحديد عام 1903م قام المحتلّون بإحصاء الكتاتيب القرآنية في المناطق الموجودة في شمال نيجيريا حاليًّا، فبلغ عددها خمسا وعشرين ألفًا (25،000)، وعدد تلاميذها مئتان وخمسون ألف (250،000).[21] ثم في عام 1960م بعد استقلال نيجيريا

من الاحتلال البريطاني كوّن رئيس وزراء شمال نيجيريا أحمد بلّو سردون لجنة للنظر في شؤون الكتاتيب القرآنية فقامت هذه اللجنة بإحصاء هذه المدارس في شمال نيجيريا فبلغ عددها واحدا وخمسين ألف تسع مئة وواحد وعشرون مدرسةً (51921)، أما عدد التلاميذ فبلغ ثلاث مئة ثمان وتسعين ألفا مئة وثمانية عشر تلميذًا (398118).[22] ويلاحظ بأن عدد المدارس والتلاميذ قد ارتفع على ما كان عليه في بداية الاحتلال.

من هنا فكّر بعض المواطنين وخاصّة من الطبقة المثقّفة في تطوير نظام التعليم السائد في ذلك الوقت، والمتمثل في الكتاتيب القرآنية إلى نظام جديد على غرار المدارس الابتدائية، يجمع بين الأصالة والتطور يشرف عليه المسلمون يناوئ التيار الجديد الذي تمثّله المدارس الابتدائية للإنجليز.

ويمكن القول بأن هذا النوع من المدرسة قد وصل إلى نيجيريا قبل أن يفرض الاحتلال سيطرته الكاملة على نيجيريا، وإذا اعتمدنا على ما ذكره بعض الباحثين من أن أوّل من جمع الأولاد على المقاعد والسبورة في نيجيريا عام 1890م أو 1899م - على اختلاف بين المؤرخين- هو الشيخ عبد الكريم الطرابلسي[23] الرحالة المغربي الذي طاف بأقطار أوروبا وآسيا، كما طاف بكثير من بلاد أفريقيا إلى أن توفي بمدينة كنو النيجيرية في عام 1926م،[24] وما لم يتوقف عليه الباحث هو هل هناك ارتباط بين جهود هذا الشيخ وانتشار المدارس العربية والإسلامية في نيجيريا أم لا؟

أما الافتتاح الرسمي لهذا النوع من التعليم كان في عام 1922م، عندما فتحت جماعة أنصار الدين مدرستها في لاجوس، ومن هناك دخل نظام المدارس الإسلامية والعربية إلى شمال نيجيريا.[25] وأول مدرسة إسلامية لتعليم الدراسات الإسلامية واللغة العربية فتحت في شمال نيجيريا كان في عام 1927م في إمارة بَرْنُو، وقد سمحت الحكومة المركزية بإيفاد ثلاثة مدرسين من السودان للتدريس فيها، وتجرى الدراسة فيها باللغة العربية.[26] وهذه الصحوة الطيّبة من قِبَل المسلمين هي التي أدّت إلى افتتاح مدرسة العلوم العربية في كنو - أشار الباحث إليها سابقا-، ومع استقلال نيجيريا عن الاحتلال البريطاني انتشرت المدارس الإسلامية والعربية في جميع المناطق التي توجد فيها المسلمون في نيجيريا. ففي ستينات القرن الماضي توجد في مدينة كنو فقط أكثر من سبع مدارس إسلامية وعربية.[27]

تطوير الكتاتيب القرآنية إلى الإعدادية والثانوية العربية:

بعد استقلال نيجيريا عن حكم الاحتلال وجد المسلمون فرصة ذهبية لتنظيم شؤون التعليم بأنفسهم حسب حاجاتهم ورغباتهم، فانتشرت المدارس العربية والإسلامية انتشارًا كبيرًا جنبًا إلى جنبٍ مع الكتاتيب القرآنية التقليدية، وفُتحت مدارسُ عربيّة إعداديّة وثانويّة كثيرة؛ للذكور وللإناث؛ حكومية وغير حكومية. وفي ثمانينات القرن الماضي تطوّر تعليم القرآن الكريم في المدارس العربية والإسلامية وانتشرت فيها رواية حفص عن عاصم، وانتشر علم تجويد القرآن نظريًّا وتطبيقا. وهذا النشاط الكبير الذي شهده تعليم القرآن الكريم قد دفع الحكومة في بعض ولايات نيجيريا إلى أن تفتح أقساما لتحفيظ القرآن والتجويد في بعض المدارس العربية الثانوية، وقد كلّل هذا الجهد من قِبل الحكومة بالنجاح، لأن إضافة أقسام لحفظ القرآن الكريم إلى هذه المدارس أعطاها طابعا خاصّا، فزادت شهرتها وكان الطلاب يؤمّونها من جميع أنحاء البلاد، وخاصّة بعد بداية المسابقة القرآنية في نيجيريا في عام 1986م.[28]

فمثلا، في ولاية كنو بشمال نيجيريا فتح قسم تحفيظ القرآن الكريم والتجويد في عدد من المدارس العربية الحكومية، منها:

1- مدرسة العلوم العربية، التي أسست في عام 1934م
2- كلية معلمي اللغة العربية "غُولي"
3- كلية اللغة العربية للبنات "غُورُوندُوظي"
4- المدرسة الثانوية العربية للبنات " طَنْ بَتّ"
5- المدرسة الثانوية للدراسات الإسلامية للبنات " أَلْبَسُو "

6- المدرسة العربية الثانوية للبنات " تُدُنْ وَدَا "

الكليتان الأولى والثانية للذكور، فتح فيهما قسمان: قسم تحفيظ القرآن وقسم للتجويد. في القسم الأول يدرس الطالب فيها ستّ سنوات يحفظ من خلالها القرآن الكريم. وفي القسم الثاني وهو خاص للحفّاظ، يدرس الطالب فيه أحكام التجويد وعلوم القرآن لمدّة ستّ سنوات. أما بقية المدارس الأربعة الأخيرة فهي للبنات، وفتح فيهنّ قسم لتحفيظ القرآن الكريم فقط.

وهكذا استمرّ الأمر وتتوسّع المدارس القرآنية وتتزايد شعبيّتها إلى أن فُتحت ثانويات خاصّة لتحفيظ القرآن الكريم والتجويد حكومية وغير حكومية. ففي عام 1989م فُتحت أول مدرسة باسم كلية القرآن الكريم وعلومه، ثم بعد ذلك غيّر اسمها إلى كلية عبد الله بايرو لعلوم القرآن. وفي العام الدراسي للعام 2018/2017م في ولاية كنو فقط بلغ عدد المدارس القرآنية والتجويد إلى أربع وخمسين مدرسةً (54). واحد وعشرون (21) منها حكومية والبقية غير حكومية.[29]

أما المواد التي تدرس في هذه المدارس تشمل: القرآن وعلومه، والقراءات، والتفسير، والحديث، والفقه، والنحو والصرف، والقراءة والفهم، والأدب العربي، والإنشاء والنحو، وإحدى اللغات المحلية واللغة الإنجليزية، والرياضيات، والعلوم، وعلم الاجتماع.

وفي الوقت الراهن يمكن القول بأنه تمّ تطوير الكتاتيب القرآنية من مدارس تقليدية إلى مدارس حديثة في المراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية، خلال هذه المراحل يمكن للطالب أن يحفظ القرآن الكريم ويتعلم علوم الدين ويتقن اللغة العربية. أما الكتاتيب القرآنية التقليدية فقد تقلّص عددها جدًّا، لأن آباء الأطفال تولّوا عنها وفضّلوا إرسال أبنائهم إلى المدارس العربية والإسلامية، حيث يتعلّم الولد علوم الدين واللغة العربية إضافة إلى تعلّم القرآن الكريم وحفظه وفق منهج وأسلوب جميل، خال من العنف والشدة في التأديب الموجودَيْن في بعض الكتاتيب. كما أن ظهور جماعة (بوكو حرام) المتشددة قد أثّر تأثيرا سلبيًّا على هذه المدارس، لأن بعض أفراد الجماعة ومنهم مؤسسها الذي يدعى محمد يوسف ينتسبون إليها. هذه العوامل أجبرت بعض الكتاتيب إلى أن تتحوّل إلى النظام الجديد أو تجمع بين النظام الجديد والنظام التقليدي ليختار الأب لولده القسم الذي يناسبه، وبعضها قد تمّ إغلاقها وخاصة في المدن، أما في القرى فما زال النظام التقليدي قائما يتنافس مع النظام الجديد.

المشكلات التي تواجه التعليم العربي والإسلامي في الكتاتيب القرآنية:

على الرغم من التطورات التي شهدتها المدارس القرآنية، والنجاحات التي حقّقتها اللغة العربية فيها، فهناك مشكلات تواجهها، وهذه المشكلات لا تختلف كثيرا عن مشكلات التعليم العربي والإسلامي في نيجيريا بصفة عامة، ومنها:

1- قلّة التمويل، لأن بعض الحكومات لا تدخّل في شؤون الكتاتيب القرآنية وإنما كانت تترك الأمر تحت رعاية المجتمع، وهذا هو واقع المدارس القرآنية في جنوب نيجيريا، حيث لا تدعمها الحكومات ماديًّا على الرغم من كثرة نسبة المسلمين في المنطقة. بخلاف شمالها إذ إن الحكومات في المنطقة الشمالية كانت تتدخّل بشكل كبير في شؤون المدارس القرآنية وتتكاتف مع الأفراد والمجتمع في تطويرها، لذلك كان انتشار تعليم القرآن الكريم وعلومه في شمال نيجيريا أكثر من جنوبها.

2- الإهمال من أولياء أمور الأولاد، حيث يوجد بعض الآباء لا يولون أيّ اهتمام للمدارس الإسلامية والعربية، وإنما كانت اهتماماتهم موجهة نحو تعليم اللغة الإنجليزية والثقافة الغربية، وخاصةً عندما نجدهم ينفقون من أجل ذلك أموالا طائلة، بينما يمتنعون من دفع رسوم المدارس الإسلامية

أو يتأخرون عن التسديد مما يؤدي إلى إيقاف أبنائهم من الدراسة أو فصلهم عنها نهائيا، وأحيانا يشلّل عمل المدرسة لعدم التمويل الكافي، وهذه الحال تجبر قائمين عليها إلى إغلاقها نهائيا.

3- عدم توفّر المقررات الدراسية التي يتعلّم منها التلاميذ، الأمر الذي دفع بعض المدارس إلى اعتماد مقررات صادرة من قِبل بعض الدول العربية كالسعودية وليبيا والسودان، وأكثرها لا تستجيب للمطالب الثقافية للمجتمع ولا تتلاءم مع بيئتها ولا تتناسب مع مستوى التلاميذ التعليمي.

4- عدم مراجعة وتطوير المناهج الدراسية لتستجيب متطلبات العصر وحاجات المجتمع المتجددة، لذلك يصعب على المدرسين تطبيقه حسب ما تتطلّبه العملية التعليمية.

5- نقص كفاءة بعض المدرّسين وقّلة الخبرة في مجال التدريس، لأن توظيف مدرّسين أكفاء يحتاج إلى تمويل جيد الأمر الذي يمكّن المدارس من جلب مدرّسين جيّدين يدفع لهم رواتب مجزية.

الخاتمة:

خلال هذه المسيرة البحثية ناقش الباحث دور اللغة العربية في تطوير الكتاتيب القرآنية في نيجيريا، إذ كانت برفقة الإسلام أثناء دخوله وانتشاره في كل مكان، وما اعتنق إفريقي هذا الدين إلا وقد عرف شيئا من الألفاظ العربية. والذي يحرص على الاغتراف من ينابيع تعاليم هذا الدين ينتهي إلى الإفادة من الثقافة العربية الإسلامية. وهكذا دخلت اللغة العربية إلى نيجيريا مع انتشار تعليم القرآن الكريم وتوغلّت فيها، وتركت آثارا طيّبةً ينطق بها الواقع الملموس.

ومن مظاهر تأثير اللغة العربية في نيجيريا ظهور الكتاتيب القرآنية وانتشارها في جميع أنحاء البلاد، وكانت قبل الاحتلال البريطاني وبعد دخوله بوقت طويل تمثّل مراكز ثقافية لمحو الأميّة ومحاربة الجهل، حيث صار الطلاب يتعلّمون القراءة والكتابة باللغة العربية فيها، ومنها يتخرّج الطالب ويلتحق بالمعاهد العلمية ليتعمّق في الدراسات الإسلامية واللغة العربية. ثم تطوّرت بعد ذلك إلى نمط المدارس الابتدائية لتسد فراغا كبيرا الذي أحدثه المحتلون بين الكتاتيب القرآنية والمدارس التي أدخلها، والتي تتلقى دعمًا ماديًّا ومعنويًّا من قِبل السلطة الحاكمة بغرض إزاحة اللغة العربية عن عرشها وقيمتها ويتبوّأ هو مكانتها، فصمدت اللغة العربية ووقف المسلمون دفاعا عنها أمام هجمات المحتلّين المغرية في ذلك الوقت.

وبعد استقلال نيجيريا عن الحكم البريطاني استطاع المسلمون فيها أن يدبّروا شؤونهم ويعيدوا تنظيم التعليم العربي والإسلامي على نمط يتماشى مع حاجات الشعب الدينية والاجتماعية، فانتشرت المدارس العربية والإسلامية في طول البلاد وعرضه، وتطور نظام الكتاتيب القرآنية تطورًا كبيرًا، بحيث يستطيع الطالب أن يتعلّم القرآن الكريم ويحفظه ويتعلم معه اللغة العربية والدراسات الإسلامية باللغة العربية في جميع مراحل التعليم؛ من المرحلة الابتدائية إلى المرحلة الجامعية.

ومما يجب الاعتراف به هو وجود مؤثرات سلبية للغة العربية، الأمر الذي جعلها تخسر كثيرا من مميزاتها ومكانتها المرموقة في نيجيريا نتيجة عبث المحتلين بها، وعلى الرغم من ذلك كله فقد ظلت هذه اللغة تلعب دورًا مهمًّا لكونها لغة الدين والثقافة، وأنها تدرّس في جميع مراحل التعليم، ويؤلف بها الكتب، ويكتب طلاب الجامعات بحوثهم ورسائلهم الجامعية بها، وإضافة إلى ذلك فإن اللغة العربية هي اللغة الأجنبية الثانية الأكثر انتشارا بعد اللغة الإنجليزية.

التوصيات والمقترحات:

وتتجلى توصيات الباحث ومقترحاته في النقاط التالية:

1- أن تقوم المراكز الثقافية والجمعيات المعنية باللغة العربية بدور فعّال في تطوير المدارس القرآنية الحديثة، من خلال إقامة علاقات ثقافية مع الجهات التي تشرف عليها.

2- تنظيم دورات تدريبية للمدرّسين ومديري مدارس القرآن الحديثة، مع تزويدهم بوسائل التعليم المبتكرة من أجل تأهيلهم ورفع كفاءتهم العلمية والمهنية.

3- مراجعة مناهج اللغة العربية للمدارس القرآنية الحديثة وإعادة صياغتها استجابةً لمتطلّبات العمليّة التعليمية الجديدة والتحديات المعاصرة، لأن المنهج المعتمد حاليًّا قديمًا ويفتقد إلى المرونة.
4- توفير وسائل التعليم الحديثة للمدارس القرآنية وتدريب المدرسين على كيفية استعمالها وتوظيفها في العملية التعليمية.
5- إصدار مجلات وصحف باللغة العربية لمتابعة وتقييم حركة اللغة العربية وآدابها.
6- انعقاد مؤتمرات حوارية وندوات ثقافية لمناقشة تطورات اللغة العربية والتحديات الجديدة والمتجددة التي تواجهها، مع إيجاد سبل معالجتها.
7- تفعيل دور الجمعيات العربية والثقافية العاملة في إفريقيا وتوحيد جهودها في معالجة التحديات التي تواجهها.
8- أن تقوم حكومات الدول الإسلامية بدعوة الجمعيات التابعة للأمم المتحدة مثل UNESCO, UNICEF وحثّها على مساندة الحركة الثقافية للغة العربية والمدارس العربية والإسلامية في إفريقيا باعتبارها جزءًا من تراث وثقافة الشعب الإفريقي، وخاصة في جنوب الصحراء.

الهوامش:

[11]- ابن منظور، محمد بن مكرم الأنصاري، لسان العرب، كلمة: كتب
[22]- ابن حنبل، أحمد: (1995) مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مكتبة الرسالة- بيروت، ، رقم الحديث: 3697، ج: 6، ص: 225،
[3]- الإلوري، آدم عبد الله (1): (ط:3- 1981م)، نظام التعليم العربي وتاريخه في العالم الإسلامي، دار العربية- بيروت ، ص: 35
[4] - Fafunwa, A.B, (1995): History of Education in Nigeria, NPS educational Publishers Limited , p. 51
[5]- الدكو، فضل كلود: (ط:1- 1998م)، الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي الإمبراطورية "كانم"، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ص: 92 . وغلادنثي، أحمد سعيد: (ط: 3- 2016م) حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، دار الأمة- نيجيريا ، ص: 40
[6]- الدكو، ص: 91،
[7]- Dahiru, U. (2010) Qur'anic Studies in Borno, Ed-linform Services, p. 30
[8] - Ibrahim, Kabiru Uba: (2008), Tarihi da Ci Gaba da Aka Samu a Gasar Karatun Alkur'ani Mai Girma A Jihar Kano, Mai-Nasara Printing Press, p.19
[9]- أبو بكر، علي: (ط:2-2014م)، الثقافة العربية في نيجيريا، دار الأمة- نيجيريا ص: 258
[10] - المصدر نفسه، ص: 188
[11]- المسكين، تجاني وأخرون: (ط:1- 2017م)، اللغة العربية في نيجيريا ملامح تاريخية ومشخصة الواقع، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ص: 13
يقول: الأستاذ الدكتور محمد الثاني زهر الدين العميد السابق لجامعة بايرو كنو، وإمام وخطيب الجامع الكبير في كنو حاليا:حتى في أواخر الخمسينات كانت الوثائق في أرشيف الملك كنو توثّق باللغة العربية. (نقلت هذه المعلومة من محاضرة ألقاها الشيخ على طلاب مرحلة الدكتوراه في شهر سبتمبر 2018م بجامعة بايرو).
[12]- الإلوري، آدم عبد الله (2): (ط:1- 2014م): الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودي الفلاني، دار الكتاب المصري- القاهرة ص: 76. Dahiru, p.126
[13]- ابن خلدون، عبد الرحمن: (ط:1-2000م) مقدمة ابن خلدون، دار الكتب العلمية- بيروت ص: 462
[14]- الزياتي، ابن الريّان، (ترجمة: عبد الرحمن حميدة): (2005م) وصف إفريقيا، مكتبة الأسرة- مصر ص: 263
[15]- المصدر نفسه، ص: 264
[16]- Dauda, Aliyu: Fundamentals of Islamic Education, Triumph Publishing Company, p.77
[17]- الإلوري، (2)، ص: 78
[18] -Dahiru, p. 234

[19]- أرزي، سكيرج سليمان: (2018م)، الكتاتيب في "كنو" بين الماضي والحاضر، مؤسسة غورون دوتسي للبحث والفتوى والإرشاد، ص: 134
[20]- أبو بكر، ص: 255
[21]- Dahiru, p 233
[22]- -Abubakar, Aminu Shehu, Appraisal of Qur'anic Education in Nigeria,Huda-Huda A Multi-disciplinary Journal of Languages, Volume 10, No. 1, September 2018, p. 121
[23]- لم أحد من ترجم له حسب المراجع التي رجع إليها الباحث
[24]- الإلوري، (1) ص: 57
[25]- Dahiru, p 235
[26]- أبو بكر، ص: 256
[27]- Dahiru, p 235
[28]- Ibrahim, p. 27
[29]- تحصلت على هذه المعلومات من مكتب مسؤول الامتحانات في قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية بوزارة التربية والعلوم والتكنولوجية بولاية كنو